مباحث هادفة من تعاليم القرآن

القرآن إلزامٌ للعمل في النهج القويم

بقلم: الدكتور عبد المجيد الحر

إنّ اللّه اختارَ نبيَّهُ (ﷺ) لحمل رسالته بحفظ قُرآنه، وتلاوة آياته على الناس لإخراجهم من الشِّرك إلى التوحيد، ومن الكفر إلى الإيمان. وقد رأى فيه المسلمون نَفْعاً غزيراً، وبركةً كثيرةً. فلم يكتفوا بحضنه في صدورهم، وتقبيله بأفواههم. بل جعلوا يتدبرون آياته، ويتفكرون بما تدعوهم إليه. فقد وجدوا في تفسيرها بُعْداً عن هوى النفس، وصدقاً وانصافاً وتجرداً عن الغرض. فهو أشبه بالطبيعة التي ما زال الكثيرُ من أسرارها يحتاجُ إلى حلّ. وكما أَنَّ الإنسانَ لا يفسرُ أسرارَ الطبيعة على هواه، بل يلائم بينها وبين ما يتوجبُ عليه. كذلك الحال مع القرآن الذي يجري مع الأزمان، كجريان الشمس الدائم، ليس على وتيرةٍ واحدة، بل له ظاهرٌ وباطن. ويتقدم بظاهره وباطنه على كلّ تطوّرٍ في العلم والتفكير. ويعرض من المعاني والمفاهيم، ما يتسع لظرفية الزمان وإشباعه[1]. والقرآن يتناول كثيراً من المطالب والمباحث، منها نظرته إلى الكون، نظرة إلزامٍ تدعو إلى العمل، بجهادٍ تعبّدي، يقود إلى معرفة الله، عن طريق الكفاح المتواصل في جميع مرافق الحياة. وقد يقف الإنسانُ عند هذا الإلزام ليدرك كنهه، ويتعرف على ماهيته من خلال متوجباته. ومن هنا، كان علينا تقريب هذا الإلزام، من خلال واقع الحياة التي نحياها فنقول: هناك حياةٌ طبيعية، يكتنفها الهدوء، ويحيطها السلام، فلا تستدعي من الإنسان إجراءً غير مألوفٍ في الحياة العادية. ولكن، إذا أحاط الطبيعة وباءٌ قاتلٌ فتّاك، فماذا يتوجب على ذلك الإنسان؟ الإسراع في إعلان حالة

(١) المطهري: مرتضى. معرفة القرآن: ترجمة جعفر صادق الخليلي، ص ٤٦.

الطوارىء. وذلك بسدّ منافذ الطرق، ونشر المفارز الصحية التي تسأل المواطنين عن شهادات التلقيح ضد المرض المنتشر، منعاً لانتقال العدوى إلى الصحيح من الأجسام، أو البلدان المجاورة التي ترتبط بالبلد الموبوء بعلاقاتٍ تجارية أو سياحية. ومن هنا يهتم البلد المصاب اهتماماً شديداً بنشر الحالات الطارئة، في جميع مؤسساته لاستئصال المرض من جذوره، ومنع تجدد حدوثه، وهذه الحالات تختلف شدةً وضعفاً حسب اختلاف اهتمام الدولة بأبنائها، وحرصها على سلامة مواطنيها. والقرآنُ لا يدعو إلى أكثر من ذلك في حالتي الصحة والأمان، أو المرض والفتن. فنحن لا نحتاج إلى حالةٍ طارئةٍ في الدين إذا كان الفكر سوياً والعمل مستقيماً. أمّا إذا دخل مجتمعنا الإسلاميّ وباءٌ فكريٌّ، ودعوةٌ إلحاديةٌ، تهتك ستر البيوت، وتضلّل العباد، وتغرّر بالأولاد، فإنّ القرآن يُلزمنا بإعلان حالة الطوارىء، ومواجهة ما يُفسد ديننا، ويهدم مبادئنا بقوله تعالى: ﴿**ولتكن منكم أمّةٌ يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر أولئك هم المفلحون**﴾(١). ويعود سبحانه وتعالى ليكرر علينا دعوته إلى بذل كل تعبٍ وعناء نتجه بهما برغبات الذات وحاجاتها لطرد الدخيل علينا، والارتفاع بعقيدتنا إلى مدارج القرب والرضى من الله الذي يقول فينا: ﴿**كنتم خير أمّةٍ أخرجت للنّاس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله**﴾(٢) وعكس ذلك يكون إذا سارت الأمور في مجراها الطبيعيّ. إذ أنّ القرآن ـ في مثل هذه الحال ـ لا يحثنا على أي نوعٍ من أنواع إعلان حالة الطوارىء، ويمكن للمرجع أو المسؤول الشرعيّ، أن يترك للناس زمام المبادرة، والركون إلى المستوى الأدنى من الحركة اليومية في عملنا الاجتماعي. وعلى تلك السجية نشأ الوضع الطبيعي بتوالد الأفكار وتطورها ضمن مراحل تاريخية في حياة المسلمين. فكانوا يبادرون ـ أي المسلمون ـ إلى علماء زمانهم المنفتحين على عالمهم المتقدم بفضل ما اختزنه رجال الدين من معرفةٍ وقدرةٍ على الاستنباط والاستنتاج، فيأخذون منهم انفتاحاً على الوعي، وقدرة على الصبر من أجل الصمود، وتنفيذ أوامر العقيدة التي يتحلون بها، في سبيل بلوغ الكمال الأمثل.

(١) سورة آل عمران: الآية (١٠٤).

(٢) سورة آل عمران: الآية (١١٠).

وكان قادة المسلمين، والأئمة الموجهون والمرشدون، يذكّرون الناس الآخذين بزمام الدين، أنهم يعيشون ضمن عالمٍ لا يؤمن أهله إلاّ بالقوة، ولا ينحنون، ويرعوون عن الظلم والفساد والإفساد، إلا في ظل سلطةٍ قويةٍ متحكّمة بآلة قيادتها، ودستور انقياد الناس لها. وديننا العظيم يدعونا إلى الأخذ بأسباب القوة، حتى نؤمّن لأهلنا وأوطاننا وأرواحنا، ما يجعل الآخرين يخضعون لناموس دستور العقيدة في حفظ توازن سيرها وتوجهها بتجسيد الأخوة، والوحدة الإسلامية الآخذة بالتآلف والانسجام بين المواطنين من جميع الطبقات والأجناس. والله عزّ شأنه قد جعل عزّة المسلمين، في قوة إيمانهم، وصلابة أبطالهم، وشدة بأس رجالهم، وكمال أخلاق أفرادهم، ولهذا، كان من الجدير بكل مسلم، أن يعمل على استخدام الوسائل التي توصله إلى الهدف الأسمى النبيل، وهو العيش في عزّةٍ، والحياة في كرامة العمل المتواصل بقوة الاندفاع، في جميع الميادين وشتى المجالات. والمسلمون الأولون، فرضوا سلطانهم على جميع من عاشوا معهم أو جاوروهم، كما جاء في قوله عزّ وعلا ﴿**وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً**﴾[1]. وقد عملوا جهد طاقتهم ليكونوا بعملهم أقوياء، يفرضون احترامهم بتوحيد كلمتهم ضد أعدائهم، فيجعلون في قلوبهم رهبةً لما يتمتعون به من سلاح شجاعةٍ، وإرادة عقيدة، وحسن تدبر في فن التعامل المرن، الذي يجعل صاحبه ذا نفس كبيرةٍ تأبى الذلّ وترفض الهوان، وتكدح في سبيل المجتمع الأسمى والأمثل، الذي تتشرف بالانتساب إليه، لأنه يمقت التواكل والسلبية، ولا يحب حياة العزلة والتأخر والضعف. ومن هذا المنطلق يقول الرسول الأعظم عليه أفضل الصلاة: «المؤمن القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف. وفي كل خيرٍ احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيءٌ فلا تقل: لو أني فعلت كذا كان كذا، ولكن قل، قدّر الله وما شاء فعل» وهذا الحديث الشريف، يحمل لنا دستور القوة، وإلزام العمل في كل شيءٍ نافعٍ مفيد، والسعي الموصل إلى تحقيق ذلك العمل، في المثابرة على الكفاح، دون استسلامٍ وبلا ضعف، ودونما استرسالٍ مع الأوهام التي تغرقنا في بلادة الاسترخاء، وكسل الخنوع. كما يحمل لنا قوة العيش المرهوبة الجانب، المسموعة الكلمة، فنحيا بها، حياةً عزيزةً

(١) سورة النساء، الآية (٩١).

كريمة، يذلّ لهيبتها الضعفاء، ويخشى بأسها الأعداء. وهذا ما يصف به تبارك وتعالى محمداً صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه بقوله: ﴿**محمّدٌ رسول الله، والذين معه أشدّاءُ على الكفّار رحماءُ بينهم**﴾[1]. فأتى على ذكر شجاعة الرسول الأعظم من خلال عملٍ جعله وأصحابه أعزاء الجانب، تُصان بهم الأوطان. وإذا اجتمع لنا في عملنا الذي نلتزم به من خلال عقيدة الدين الحنيف، قوةُ الإيمان بعظمةِ الخالق، وقدسية الوطن، فإننا، بلا شك، نحقق أهدافنا ونبلغ غاياتنا، ونصل إلى ما تصبو إليه نفوسنا من عزٍّ وسؤدد. وإلزام العمل دعوةٌ تردد صداها، مع الوحي الذي أنزله ربُّ الأرض والسماء، على أنبيائه ورسله، منذ أقدم العصور. وأقربهم إلينا في القِدم إبراهيم عليه السلام الذي جعله أُمّةً وللنّاسِ إماماً، رفع به مِلّة التوحيد على صدور بني آدم، وخلّد للإنسانية ميراثاً سماوياً من الفضائل العالية، وتراثاً قدسياً من الإيمان والصبر والفناء في العمل الحق الذي لا يعرف الاسترخاء. والوحي الذي نزل على إبراهيم عليه السلام، ترك لذريته وللعالم أعظم تراثٍ روحيٍّ، تمسّك به سيدنا الأمين محمد (ﷺ) فكان قمة التضحيات المتواصلة التي قدمت للإنسانية، دروساً في الصبر الموصل إلى الثبات في العمل البعيد عن الكلل والملل. وللمقارنة بين ما قام به خليل الله إبراهيم، وما قام به حبيب الله محمد، نجد الجامع المشترك - بين النبيين العظيمين - الذي جعلنا نقول ونردد: «اللهم صلِّ وسلِّم على سيدنا محمد، كما صليت وسلمت على سيدنا إبراهيم» والذي جعلنا نقول في المقارنة التي تشابهت وتكاملت: إن محمداً الهاشميّ ولد يتيماً، وكان مولده مولد الإسلام ذاته، فجاء ثورةً على الطغيان والعدوان والكفران. وبعد أربعين عاماً من مسيرة الزمان، قاد هذا اليتيم ثورة السماء، شاهداً ومبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله المستحق للعبادة وحده، الذي بيده الحياة والموت، مُقسّم الأرزاق، البارىء المصوّر المبدع، عالم ما في الأرحام، وسراجاً ينير العقل والكون، ويفسح الطريق أمام السالكين، طريق الحق والعدل والسلام. وفوق هذه الأرض التي شهدت مولد رسولنا الأعظم، كانت سيرة الإسلام، كل شبرٍ فيها شهد موقفاً أو مشهداً، أو واقعةً، كانت له خير زادٍ في تقلبات الزمن وحوادث الأيام، حتى قال فيه سبحانه وتعالى: ﴿**يا أيها النبيّ إنّا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً،**

---

(١) سورة الفتح رقمها ٤٨، الآية (٤٨).

وداعياً إلــى الله بإذنه وسراجاً منـيرا﴾[1]. ومن العمل الجليل البعيد عن الاسترخاء والكسل كانت هجرة الرسول، المظفرة، التي لولاها ما استطاع الإسلام أن يندفع تلك الاندفاعة الهائلة، ولا أن يحطّم رؤوس الكفر والجبروت[2]، وإذا نظرنا إلى العمل الذي ألزم به النبي نفسه، نرى أنه هاجر بدينه، رافضاً ما حاولت قريش فرضه عليه بالقوة وبالإغراء، رافضاً الاستسلام. ومن ثم انطلق إلى أرض يستطيع أن يأمن فيها على دينه، وعلى أتباعه، في ظلّ حرية الدعوة التي اصطفاها له ربه، ليتحمل تبعاتها، ويقوم على أمرها، في الوقت الذي كشف له الخالق العظيم، عن حجم الأمانة العظيمة، والمسؤولية الكبرى التي أُلقيت على عاتقه، ووضعت على كاهله. ويا لها من مهمة كبيرة، وأمانة عظيمة، إنها أمانة التبليغ عن الله رب العالمين **﴿ياأيها الرسول بلّغ ما أُنزل إلـيك من ربك وإن لـم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إنّ الله لا يهدي القوم الكافرين﴾**[3]. ومهمة الهداية للخلق أجمعين، وسوقهم مختارين على درب الاستقامة والإيمان **﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقْتَدِه قل لا أسألكم علـيه أجراً إنْ هو إلا ذكرى للعالـمين﴾**[4]. ولقد أدى الرسول الأمانة وبلّغ الرسالة، وعاش حياته منذ بعث نبياً: يشرح للناس معالم الإيمان، ويأخذ بأيديهم حتى يستقيموا على دربه، وينتظموا على صراطه، وذلك في صبر وأناة، وحكمة وكياسة، وتلطف وحسن سياسة، ورفق ورحمة، ورقة، ولين جانب، حتى دخل الناس في دين الله أفواجا[5]. ولقد تجلّت بواكير جهده (ﷺ) وثمرات سعيه كأعظم ما تكون جهداً وتفانياً، في مجتمع المدينة المنورة، الذي قام على حبّ الله وعلى خلق الإيثار، ونكران الذات، وهما من أعظم الطرق وأقربها إلى الإيمان في الإسلام حتى لقد زكى الله تعالى في كتابه هذا المجتمع تزكيةً باقيةً ما بقيت السموات والأرض، وذلك قوله سبحانه: **﴿والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر**

---

(١) سورة الأحزاب، رقمها ٣٣ ، الآية ٤٥ و٤٦ .

(٢) مجلة منبر الإسلام: العدد (١٢). السنة: (٣٢) ذو الحجة (١٣٩٤ هـ)، ص ١٧.

(٣) سورة المائدة، رقمها ٥ ، الآية ٦٧ .

(٤) سورة الأنعام، رقمها ٦ ، الآية ٩٠ .

(٥) مجلة منبر الإسلام: العدد (١٠) السنة: (٣٢) شوال: ١٣٩٤ هـ: مصطفى عبد الحليم الجندي، ص ١٩٣.

إلـيهم ولا يجدون فـي صدورهم حاجة مـما أوتوا ويؤثرون علـى أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم الـمفلـحون﴾[1]. فلقد ركن رسول الله (ﷺ) وهو بصدد تربيته لأصحابه وإقامته وإياهم على طريق الإيمان على إشاعة خلق الـحب بين مـجتمعهم الـجديد. وعلـم الناس فيما علـمهم: أن أقصر طريق إلـى الإيمان، إنما يكون باخلاص الـحب فيما بينهم، بعيداً عن النفع الدنيوي والغرض الـمادّي[2]. وكان جهد عمل الرسول الأعظم، أن يتأكد لدى الـخاصة والعامة من الناس: أن حب الـخير للآخرين، قبل مـحبته للنفس وللذات، وهو خير طريقٍ يوصل الـمرء لعمل الإيمان الصحيح الـمتمثل في قوله صلّى الله عليه وآله وسلـم: «أحبب للناس ما تـحب لنفسك، تكن مؤمناً، وأحسن مـجاورة من جاورك تكن مسلـماً» والطريق إلـى الإيمان، كما رسمه رسولنا الأعظم، يحتاج إلـى ضروبٍ من الـمجاهدة للنفس، وإلـى القدرة على الأخذ بلـجامها، وكبح جماحها، وضبط أهوائها. وهذا الذي وصفه النبي الـحبيب (ﷺ) يحتاج إلى قدرٍ كبيرٍ من الـمعاناة والـجهد، حتى تتمكن النفس من السيطرة على سائر جوارح البدن، وإقامتها على طريق الله وصراطه[3] أي أن العبد لن يبلغ حدَّ الإيمان بالتواكل والإسترخاء، ولن يستقيم دربه بالركون إلـى الكسل والـخنوع، بل بعد أن تستقيم جارحةٌ من أخطر الـجوارح أثراً (في الـمجاز لا في الـمعنى) وهي الإرادة الـمرتبطة بالقلب الـخافق بحب الكدّ والـجدّ، واللسان الـمتحدث عن السعي والعمل الدؤوب. وهذا ما أشار إليه الرسول صلّى الله وعليه وآله وسلـم فقال: «لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبُه، ولن يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه» وهذا لن يستقيم بدوره، ويبلغ طريقه إلـى الإيمان إلاّ باستكمال ثلاث خصال تكون جزءاً من كيانه، وطبيعةً ثابتةً باقيةً في نفسه، أشار إليها الرسول الأعظم صلوات الله عليه وعلى آله بقوله: «لا يستكمل العبد الإيمان حتى يكون فيه ثلاث خصال: الانفاق من الاقتار، والانصاف من نفسه، وبذل السلام[4] والعمل الذي رسمه الرسول

---

(١) سورة الـحشر، رقمها ٥٩ ، الآية ٩ .

(٢) منبر الإسلام: العدد (١٠) السنة (٣٢) شوال: ١٣٩٤ هـ. مصطفى عبد الـحليم الـجندي، ص ١٩٣.

(٣) الـمرجع نفسه، ص ١٩٣.

(٤) هذا الـحديث والأحاديث الأخرى التي وردت على لسان النبي (ص) يمكن الرجوع إليها في مـجلة منبر الإسلام، العدد (١٠) سنة ١٣٩٤ هـ. ص ١٩٢ ـ ١٩٣.

الأعظم، لا يكون على سجية المرء الذي يختار له ما يشاء، بل على سجية العقيدة الإسلامية الحقة التي رسمت العمل على طريق «الوفاء بالعهد» وجعل هذا الوفاء علاقة يتّصف بها من قال فيهم جلَّ وعلا ﴿**يا أيها الذين آمنوا هل أدلّكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون**﴾[1]. فهذا الذي يدعو إليه الله عزَّ شأنه، يتصل اتصالاً وثيقاً بالعهد الذي يعاهد به المسلم ربه التزاماً بالعقود المتفق عليه عن طريق الوفاء في قوله تعالى: ﴿**يأأيها الذين آمنوا أَوْفُوا بالعُقُود**﴾[2] والعقود هي العهود المؤكدة في العمل بين الإنسان وبين ربه، في اظهار الانقياد والطاعة للّه عزّ وجلّ في جميع تكاليفه: أمره ونهيه. وأما العهد الواجب الوفاء بين العباد بعضهم مع بعض فهو كل عقد يُعقد، سواءٌ أكان ذلك العقد يتصل بأمور الدنيا أم بأمور الدين. وعدم الوفاء بالعهد غدرٌ وخيانة. وهناك من يقول: إن العهد غير الوعد. فالعهد إلزام. والوعد ليس فيه إلزام. فعدم الوفاء بالعهد خيانة وهي حرام. وعدم الوفاء بالوعد مكروه[3]. ومع هذا وذاك فإن عدم الوفاء بأي عملٍ يقول به المرء هو: آية نفاق. وفي ذلك يقول رسول الله (ﷺ) «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان» هذا، وان الوفاء بالعهد قد يستدعي تنفيذه جهداً ومشقة، قد يقعدان بالشخص فيكسل ولا يفي. وفي هذا هبوط في المستوى الخلقي، وانحلالٌ في روابط النظام الاجتماعي. وهذه خسارة كبرى، وضياعٌ لمكاسب الأمة[4] وخير ما يعين المسلم على أداء واجبه، هو أن يأخذ نفسه للاقتداء برسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم، في كل ما يعنّ له من عمل، وأن يجعل شريعته قانون حياته، فلا ينحرف. وأن يتخذ أخلاقه نبراس سلوكه، فلا يضل. وأن يغذّي روحه بما ورد عنه في فضل الوفاء بالوعد. وإذا انتقلنا ـ ونحن في الخطّ نفسه ـ من رحاب الالتزام بالعمل والوفاء به في حضرة النبي المصطفى (ﷺ) إلى رحاب حضرة النبيّ إبراهيم عليه السلام، نجد التكامل

---

(١) سورة الصف، رقمها ٢١ ، الآية ١٠ .

(٢) سورة المائدة: السورة رقم (٥) الآية رقم (١).

(٣) منبر الإسلام: العدد (١٠) السنة (٣٢)، ص ص ١٧٤ ـ ١٧٥ .

(٤) المرجع نفسه، ص ١٧٤.

والتطابق فيما بين النبيين العظيمين، إزاء الرسالة السمحاء التي جعلت على ملّةٍ واحدةٍ، من يوم أن بعث إبراهيم عليه السلام، حتى يوم مبعث محمد صلّى الله عليه وآله وسلم. وفي ذلك يقول جلَّ شأنه ﴿**قل صدق الله، فاتبعوا ملّة إبراهيم وما كان من المشركين**﴾(١) والخير الذي يرمز إليه الخليل إبراهيم عليه السلام، يتمثل في اتباع الفطرة الإنسانية السليمة التي فطر الله الناس عليها، والتي تقضي باللجوء إلى الله الواحد القهار، في كل عملٍ نقوم به، فهو مدبّر الأمر كلّه، والاعتراف بعبوديته، والاعتزاز بتلك العبودية لله، واستمداد القوة كلها منها: ﴿**ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن، واتبع ملّة إبراهيم حنيفا**﴾(٢).

والعمل القويم وفاءً بالعهد وبالعقيدة بعيداً عن الاسترخاء، نجده مع الخليل إبراهيم عليه السلام مع بداية تفكيره، الذي يرى فيه ضلال قومه ـ ومن بينهم أبوه ـ فلا يكتفي بمجرد البراءة كموقفٍ سلبيّ ضدّ الضلال وصانعيه وضحاياه، بل يعمد إلى أقوى الإيمان: اليد واللسان. باليد ليحطم الأصنام، وباللسان نسمع ما يقول خالق الكون: ﴿**وإذا قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهةً إنّي أراك وقومك في ضلالٍ مبين**﴾(٣). وهكذا نجد أن إبراهيم رجلٌ ذو رسالة، وصاحب دعوة. ومن ثم فهو يجمع بين دعوةٍ يجب أن يبلغها، وأدب يجب أن يلتزم به. فهو يدعو والده إلى الحق الذي استيقنته نفسه، واستراح إليه ضميره، وبين برٍ بذلك الأب، وأدبٍ في مخاطبته، يفرض عليه أن يقابل صلفه وغروره، وإصراره على الكفر والضلال، بأدبٍ جم، يتمثل في الدعاء له، وفي الاستغفار عمّا فرّط في حقّ نفسه: ﴿**قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنّك واهجرني مليّاً. قال سلامٌ عليك سأستغفر لك ربّي إنّه كان بي حفيّا**﴾(٤). وعندما يتأكد الخليل إبراهيم من أنّ أباه عدوٌّ لله، يجد نفسه بين خيارين: ربّه الذي آمن به، واستيقنته نفسه، وأبيه الذي تعهده ورباه ورعاه، ويجب أن يكون به بارا، فلا

---

(١) آل عمران، السورة رقم (٣) الآية رقم (٩٥).

(٢) النساء: السورة رقم (٤) الآية رقم (١٢٥).

(٣) الأنعام: السورة رقم (٦) الآية رقم (٧٤).

(٤) مريم: السورة رقم (١٩) الآية رقم (٤٦ و٤٧).

يتردد في أن يختار جوار الله على كل جوار(1). وفي ذلك يقول عزَّ وعلا: **﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلاّ عن موعدة وعدها إيّاه، فلما تبيّن له أنه عدوٌّ لله تبرّأ منه إن إبراهيم لأوّاهٌ حليم﴾**(2). ولم يكتف الخليل إبراهيم بالعمل تجاه أبيه، بل توجه إلى الرأي العام ينبهه إلى مخاطر ما يتجه إليه في عبادته من جهل يطبق فيه الضلالة والهلاك. وهذا التوجه، هو الثورة الثقافية في المجتمع، يبيّن زيف ما تجتمع عليه تلك القلوب. وكان واثقاً من شدة الخطر الذي يتربّص به، ولكنه لم يكن آبهاً له، لأنّ الرسالة التي كلّفه الله بها، تدعوه إلى العمل دونما التفات إلى الخطر الذي قلّل الإيمان من شأنه، وجعله واهياً أمام ما يصدع به تجاه الخالق العظيم. أجل إن الخطر ينهار أمام تلك النفس الصافية المؤمنة بربها إيماناً يبدد أي خوف، ويجعلها تنجح في ذلك الابتلاء العظيم الذي ابتلى به الله يقينها. وكان للخليل أن يتصرف في نفسه كيف يشاء، وعلى النحو الذي يختار، وقد اختار عليه السلام طريق التضحية(3) التي بفضلها هدم أركان الوثنية، وجعل ذلك الهدم سُنَّةً يستنها الحبيب المصطفى، ضمن ملّة التوحيد التي جمعت ملّة إبراهيم وملّة محمد في أُمّةٍ واحدة، تجمع المسلمين داخل كيان عقيدةٍ متصلةٍ بحبل وريد المؤمن، في يقظةٍ واحدةٍ، تتجه إلى ربٍّ واحدٍ، في وقتٍ واحدٍ، ولسانٍ واحدٍ يهتف بكلمة لا إله إلا الله. وذلكم هو الشعار الذي جمع المؤمنين بوحدانية ربهم في تعظيم من تقوى القلوب التي أشار إليها بقوله عزّ شأنه: **﴿ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب﴾**(4) وتلكم هي الرحلة التي كانت من عهد إبراهيم عليه السلام إلى عهد محمد صلّى الله عليه وآله وسلم، في جملتها، رحلةً ربّانية تتم أركان الدين، وتختم رسالة المسلمين، وتكمل نعمة الله عليهم. فتصبح عند كل مسلم رحلةً نفسيةً وروحيةً، يهاجر بها إلى الله، لإحياء طريق الآخرة، بعملٍ ينمّي في ضميره عوامل الحب والشوق للبذل والعطاء. وهكذا نرى وجود المقارنة بين ما قام به خليل الله إبراهيم، وما قام به حبيب الله محمد ـ كما سبق وقدمنا ـ وهي مقارنة في العمل، تجعلنا نفرغ من دنيانا التي نلهو فيها

---

(1) منبر الإسلام: العدد (10) السنة (32)، الدكتور عبد الغني عبود، ص 141.

(2) التوبة: السورة رقم (9) الآية رقم (114) «الأوّاه» التي وردت في هذه السورة من التأوه، وهو التوجع.

(3) منبر الإسلام: العدد (10) السنة (32)، الدكتور عبد الغني عبود، ص 141.

(4) الحج: السورة رقم (22) الآية رقم (32).

ونلعب، لنعيش في رحاب ما أتى به ذانك النبيّان العظيمان. ومن خلال ذلك العيش، نذكر الخليل صاحب الفؤاد الذكيّ، والرأي الصائب، والفكر الثاقب، والحجة البالغة، التي بها دعا إلى عبادة ربه، فاطر السموات والأرض، وحذّر من عبادة أصنامٍ لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضرا، كما قال جلَّ شأنه ﴿**تالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين، فجعلهم جذاذاً**﴾(١) ونرى محمداً وليد هذه الدعوة الإبراهيمية وقد جاء ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، تحقيقاً واستجابةً لدعوة الخليل إبراهيم، تلك التي دعا الله فيها أن يبعث في الأُميين رسولاً منهم، كما جاء في قوله عزَّ شأنه ﴿**هو الذي بعث في الأمّيين رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلالٍ مبين**﴾(٢). وهكذا فالقرآن دعوةٌ إلى عملٍ يعرفه الله ورسوله والمؤمنون، وهو عملٌ يجعله المسلم نصب عينيه، ولا يبغي عنه حولا. وبذلك يكون في أمّة من ذكرنا من النبيين العظيمين اللذين عرفنا من سيرتهما: الصبر مع الجد والكدّ، والعلم مع التبصر والمعرفة، والشكر مع التضحية والعطاء، والصفح مع العزّة والكرامة، والشجاعة مع الحكمة والروية. وعلى ذكر هذا، ورد أن رسول الله (ﷺ) سأل حارثة الأنصاري: كيف أصبحت يا حارثة. قال: أصبحت مؤمناً حقاً يا رسول الله. قال: إن لكل قولٍ حقيقة، فما حقيقة إيمانك. قال: يا رسول الله، عزفت نفسي عن الدنيا، فأسهرت ليلي، وأظمأت نهاري، وكأني انظر إلى عرش ربي بارزاً، وكأنّي أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون، وكأنّي أسمع عواء أهل النار. فقال له صلّى الله عليه وآله وسلم: «عرفت فالزم»(٣). ونرى أن رسول الله (ﷺ) قال له: «عرفت» ولم يقل له «علمت» ومن هنا قيل للولي: عارف، ولم يقل له «عالم» مع شرف العلم، لأن العلم ليس مقصوداً لذاته. ولكنه مطلوبٌ ليُعمل به في مرضاة الله، وقد يكون حجةً على صاحبه إن لم يعمل به في طاعة الله ومرضاته، ونصب عينيه قوله عزّ شأنه: ﴿**إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلبٌ أو ألقى السمعَ وهو شهيد**﴾(٤).

---

(١) الأنبياء: السورة رقم (٢١) الآية رقم (٥٨).

(٢) الجمعة: السورة رقم (٦٢) الآية رقم (٢).

(٣) منبر الإسلام: العدد (١٢) السنة (٣٢)، حسن كامل الملطاوي، ص ١٧٣.

(٤) ق: السورة رقم (٥٠) الآية رقم (٣٧).